

الفصل الثاني

موقف الإسلام كدين من العقل ومحاولة لتحرير العقل العربي

يقول الكاتب نبيل علقم في مقالته عن التجديد الإسلامي: إن القرآن الكريم ألحَّ على تحرير العقل من الأساطير والخرافات، وكل أشكال اللامعقول الأخرى التي كانت أبرز معالم الثقافة العربية، وغيرها من الثقافات قبل الإسلام. وحينما تكون ثقافة ما محكومة لمظاهر اللامعقول فإنه يلزم عنها فساد النظم الثقافية جمعياً: النظام العقدي، والاجتماعي، والاقتصادي والسياسي.

وكانت دعوة القرآن الكريم إلى تحرير العقل من اللامعقول سيظل كأبي مجتمع «ينتج الخطابات، التي يحتاجها والتي تعبر عن بنية «اللامعقول». فإن كل أشكال الخطاب ستظل تصدر عن اللامعقول الديني أو السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.

ولذا جاء القرآن الكريم ليصبح البنية الثقافية والاجتماعية معاً؛ انطلاقاً من تصحيح العقيدة، فإذا صححت العقيدة صححت بقية النظم، وصح معها المجتمع، وصحت ثقافة المجتمع تبعاً لذلك. وليس غريباً إذن أن معظم آيات القرآن الكريم وردت لتصحيح العقيدة، فهناك إحصائية مهمة أود أن أذكرها هنا، وهي أن آيات القرآن الكريم (٦٢٣٦) آية كلها في العقيدة عدا أقل من ٦٠٠ آية في الأحكام الشرعية، وهذا ما دعا الفيلسوف ابن رشد إلى القول بأن القرآن الكريم إنما هو دعوة إلى النظر والاعتبار، وتبنيه على طرق النظر والاعتبار وتبنيه على طرق النظر. وجاء إصدار القرآن الكريم على استعمال العقل بصيغ شتى كالدعوة إلى التعقل والتفقه والتفكير والتبصر والتذكر، كما دعا إلى المعرفة والعلم، وخاطب القرآن أصحاب النهي وأولي الألباب وأولي الأبصار، في دعوة صريحة إلى إطلاق العقل للوصول إلى اليقين فيتغير المجتمع، وتتغير الثقافة من ثقافة اللامعقول إلى ثقافة المعقول.

وإذا تأملنا؟ آيات «التعقل» في القرآن الكريم لوجدنا أنها وردت في تسع وأربعين آية كلها بالصيغ الفعلية، وهى الصيغ التالية: عقلوه، تعقل، تعقلون، يعقلون، يعقلها، وهذه الآيات دلالات متعددة منها:

١ - أنها وردت جميعاً بصيغة الفعل، ويفيدنا ذلك في أن العقل ليس جوهرًا أو عرضًا قائمًا بذاته كما يقول القدماء، وأنه ليس مادة محسوسة يمكن وصفها. بل إن «التعقل» عملية فعلية، وليس حالة ثابتة، والفعل يتجدد بينما الاسم يدل على الثبات، وإذن فليس هناك عقل ثابت وإنما هناك فعل «التعقل» المتجدد، وإن غياب «التعقل» يؤدي إلى الفساد العقدي وغيره من النظم الثقافية.

٢ - وردت آيات «التعقل» كلها بصيغة الجمع عدا آية واحدة، وهذه الصيغ هي: عقلوه، يعقل، يعقلون، تعقلون، والآية الوحيدة التى وردت بصيغة المفرد هى «يعقلها» جاء الفاعل فيها بصيغة الجمع «وما يعقلها إلا العالمون»، ودلالة ذلك أن القرآن الكريم يوضح لنا بصورة قاطعة أن المطلوب التعقل الجمعى؛ ففى أى مجتمع؛ وفى أية ثقافة هناك أفراد يعقلون ويتعقلون لكن ذلك ليس كافيًا لتغيير المجتمع أو الثقافة لتكون ثقافة «عقل» و«تعقل»، وبمعنى آخر ثقافة عقلانية؛ إنما المطلوب أن أغلب أفراد المجتمع لتتغير النظم إلى نظم إسلامية؛ وتتحوّل الثقافة إلى ثقافة إسلامية. أى أن التعقل مطلوب إسلاميًا على المستوى الجمعى لا على مستوى الأفراد فقط.

٣ - تشمل آيات التعقل عدد كبيرًا من الموضوعات منها: تأكيد وجود الله؛ وتأكيد وحدانيته؛ والخلق والبعث وسائر الغيبيات؛ كما تشمل كل ما هو فينا و حولنا؛ قال تعالى: ﴿سَتْرِبَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] وبين طرق الاستدلال العقلى ما استخدم بكثرة فى آيات القرآن الكريم، كالتشبية وإيراد القصص والأمثال والمناظرة وغيرها. وقد استخدم القرآن مرادفات كثيرة للتعقل؛ فعلى سبيل المثال استعمل مشتقات العقل «فقه» فى عشرين آية كلها بالصيغة الفعلية؛ وبصيغة الجمع ودلالات التفقه كما وردت فى القرآن الكريم هى كدلالات التعقل. فالمطلوب ليس فقه للأفراد فقط؛ ولكن مطلوب أيضًا من بعض المسلمين أن يتفقهوا فى الدين أى أن يستثمروا استعدادهم العقلى لزيادة معرفتهم فى آيات الله فى الأفاق وفى النفس البشرية؛ قال تعالى فى آية واحدة من آيات التفقه العشرين: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. واستعمل القرآن الكريم مشتقات العقل «فكر» فى ١٨ آية كلها بالصيغ الفعلية، وبصيغ الجمع عدا واحدة. ولها الدلالات ذاتها

في أن الفكر يتغير تبعًا لتغير فعل «التفكير»؛ وإن «التفكير» أو «التفكير» يجب أن يكونا فعلًا جميعًا بمعنى طريقة التفكير، والأفكار قد تكون مقبولة إسلاميًا على مستوى الأفراد؛ لكن ذلك لا يجعل التفكير والفكر إسلاميًا إلا إذا قام أغلب أعضاء الجماعة الإسلامية بدورهم في التفكير. وهناك صيغ أخرى استعملها القرآن الكريم كالتدبر والتنكر والتبصر وأولى الأبواب وأولى النهى للحض على التفكير وعلى التعقل أو استعمال العقل للوصول إلى الحقائق اليقينة المتعلقة بالله وبالخلق وبالمخلوقات؛ أو الوصول بالعقل إلى تطهير الثقافة وتحريرها من كل اللامعقولات التي تتحكم في حياة الإنسان ومصيره. والعقل في القرآن الكريم ومن خلال الآيات الواردة فيها يعنى العلم والمعرفة والفهم؛ ويعنى أيضًا التمييز بين الخير والشر؛ كما يقول د. صلاح الدين المنجد؛ فوظيفته إذن استكشاف المجهول وفهمه، وتسخيره لخدمة الإنسان الذي يقع عليه حمل رسالة إعمار الأرض التي كلفه الله بها.

إشكالية العقل في التراث الإسلامي

بلغ التعقل؛ و«العقلانية» ذروتها في أثناء الدعوة الإسلامية، بخاصة وفي صدر الإسلام على وجه العموم، ويتمثل هذا التعقل وهذه العقلانية في سرعة التحول الاجتماعي من اللامعقول الديني بخرافاته وأساطيره إلى المعقول الإسلامي في عبادة الله وحده وما يرتبط بذلك من أسس لبناء النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولكن ذلك لم يدم طويلًا؛ فقد دخل الإسلام كما أوضحنا من قبل في صراع مع الثقافات السابقة له سواء الثقافة العربية، أو الفارسية، أو اليونانية، والهلينية؛ كما دخل في صراع مع الأديان الأخرى من بوذية، وزرادشتية ويهودية، ومسيحية، وصابئة، ومجوسية، وسواها. وكان العقل نفسه أحد موضوعات الصراع؛ في وجود السؤال الدائم: ما هو العقل؟ وما حدوده وإمكاناته؟ وما دوره في الوصول إلى الحقائق؟ وتعرض العقل في خصم هذا الصراع بين مختلف الثقافات والتيارات إلى التطرف في تمجيده أو قمعه وإلى الصراع حول إمكاناته وقدراته، وفي تنحيته أو الاحتفاء به؛ وإذا اختصرنا تاريخ البحث فيما تعرض له العقل من قمع واحتفاء، فإننا نتبين في الخطوط العريضة لا في التفصيل والجزئيات ما توصل إليه د. محمد عابد الجابري في ثلاثية نقد العقل العربي إلى نتائج الصراع تمثلت في تشييد ثلاثة نظم معرفية في الثقافة العربية؛ يؤسس كل منها آلية خاصة في إنتاج المعرفة مع ما يرتبط بها من مفاهيم ويتج عنها من رؤى. وكل من هذه النظم يتعامل مع العقل بصورة مختلفة عن النظامين الآخرين. وهذه النظم المعرفية هي: البيان والعرفان والبرهان. ويعرف الدكتور الجابري البيان بأنه: «النظام الذي أنتجه علماء البيان من لغويين، وعلماء نحو، وبلاغيين، وعلماء أصول الفقه، وعلماء الكلام؛ سواء أكانوا معتزلة أم أشاعرة أم حنابلة؛ ومن

الظاهرية أو من السلفية قدماء ومحدثين. إن هؤلاء جميعًا ينتمون إلى حقل معرفي واحد يؤسسه نظام معرفي واحد هو النظام المعرفي البياني». وفي نقده لهذا الحقل المعرفي يعتقد الجابري أن البيانيين «جعلوا من وسائل التنبيه التي يستعملها القرآن؛ قواعد للاستدلال ومنطلقًا للفكر، ولكن لا باتخاذ النص القرآني سلطة رجعية وحيدة؛ بل بقراءته بواسطة سلطة مرجعية أخرى وهي عالم الأعرابي: عالمه الطبيعي والفكري الذي تحمله اللغة العربية التي جعلوا منها مرجعية حكمًا بدعوى أنها اللغة التي نزل بها القرآن.

صحيح أن القرآن نزل بلغة العرب؛ عرب الجاهلية؛ ولكن السؤال الذي يجب التقرير فيه بصدد طريقة فهم القرآن هو التالي: هل تنزل القرآن بلغة العرب ليبقى مضمونه سجين العالم الذي تحمله هذه اللغة معها: عالم الأعرابي؟ أم أنه بالعكس من ذلك نزل بلغة العرب ليتجاوز بهم عالم جاهليتهم إلى عالم آخر ليخرجهم (من الظلمات إلى النور). أما العرفان كما يراه الدكتور الجابري، فهو نظام معرفي مشيد على نظام من المعرفة فوق المعرفة العقلية وأسمى منها، وهي المعرفة الباطنية؛ ليس بأمور الدين وحسب بل بكل ما هو سحري وخفي كالسحر والتنجيم والكيمياء. والعرفان أو ما يسمى باللغة العربية الفصحى «الفنوحى» سابقة للإسلام ولكنه نتيجة للصراع الثقافي استطاع أن يشيد له موقعًا في الثقافة العربية. وهو كما يقول الجابري: يضمن ألفاظ القرآن أفكارًا مستقاة من الموروث العرفاني. أما البرهان؛ فهو معروف وهو طريق المفكرين والعلماء والفلاسفة، وقد سلكوا طريق البرهان جميعًا لإثبات حقائقهم الافتراضية لجعلها حقيقية.

وعموماً فإن تأثير جميع النظم المعرفية يبدو واضحًا في الثقافة العربية حتى الآن؛ فالبيان والعرفان والبرهان ظلت نظرًا متداخلة متشابكة في الثقافة العربية على مر العصور. أما التاريخ الثقافي العربي السائد فهو: «مجرد اجترار وتكرار وإعادة إنتاج بشكل رديء للتاريخ الثقافي الذي كتبه أجدادنا تحت ضغط صراعات العصور؛ ومازلنا سجناء للرؤى والمفاهيم التي وجهتهم؛ والتي في الوقت ذاته تجرنا دون أن نشعر إلى الانخراط في أجزائها وفي كليتها على أن يكون القرآن الكريم المرجع الأول لهذه القراءة الجديدة، وأن تكون السنة النبوية المرجع الثاني؛ وأن نوظف ما يمكن توظيفه بعد ذلك من فكر موروث في إعادة بناء الثقافة العربية لتكون ثقافة إسلامية عالمية على أسس عقلانية ولكن؛ حتى تتمكن من ذلك علينا أن نحرر العقل ذاته من إشكالية صراع العصور؛ فالعقل أهمل إهمالًا حادًا، ويكاد يكون تائمًا من قبل أهل العرفان والباطن؛ ومجد تمجيدًا؛ وحلّ حملًا فوق ما يمكن أن يتحمّله فانحرف العقل بذلك عن إمكاناته، وكما أراد الله له؛ من وظائف على مستوى الأفراد أو على مستوى العقل

الجمعي، وذلك لدى أصحاب البرهان أو بعضهم الذين نحوا منحى الفلسفة اليونانية المختلفة في جذورها عن الثقافة العربية بعامة وعن الإسلام بخاصة، ووقف أصحاب البيان مترددين في منح العقل الأهمية التي أولاها إياه القرآن الكريم؛ أو إهماله أحياناً؛ حتى أن ثانياً مصدر أو مرجع إسلامي بعد القرآن الكريم وهو صحيح البخارى يخلو خلواً تاماً من أحاديث العقل. ويعرض الدكتور صلاح الدين المنجد هذه المسألة فيقول: «إن المعتزلة تغالوا في تحكّم العقل فتغالى كثير من الرواة في رد كل ما ورد في فضل العقل نكايه فيهم. هكذا فقد ظلم العقل في العصور التالية لعصر الدعوة الإسلامية بسبب صراع الثقافات والفلسفات والأديان؛ وجاء ظلمه بالانحراف به كما أراد الله له من جهتين؛ في جهة انحرف من قبل الفلسفات التي دعت إلى تمجيده ورفعته إلى مستوى يفوق تكريم الإنسان نفسه؛ ونعرف أن الله لم يأمر أحدًا بالسجود لغيره عدا سجود الملائكة لآدم رمز التكريم للإنسان لا يعقله فقط؛ ومن جهة أخرى جاء ظلمه من الذين أدنوا منزلته إلى درجة إهماله كلياً سواء من الباطنيين والمتصوفة وأهل العرفان الذين يقولون إن الله لا يعرف بالعقل وإنما بالباطن والإيماء؛ أو من أهل البيان الذين رفضوا كل أحاديث العقل في موقف ظالم له ردّاً على ظلم المعتزلة والفلاسفة؛ فتهاثلوا في ذلك مع أهل العرفان والباطن. ولكن ظل كثير من العلماء يعطون العقل منزلته التي دعا إليها القرآن الكريم، بل يقول الكثيرون بأن الاعتقاد التقليدي غير مقبول؛ وقد يسمح بالتقليد في الأحكام والشرائع أما في العقائد فلا بد للمسلم أن يجتاز مرحلة الشك ودائرة الريبة ويعتقد بالدليل والبرهان؛ ولا يتم ذلك إلا بالعقل وحده.

ويمكن أن نلخص مفهومنا للعقل بأنه قوة مدركة؛ أو آلة للتمييز أو حاسة دالة على الشيء أو القضية موضوع التعقل؛ وقد عرف الشيخ نديم الجسر «التعقل» بأنه يعتمد على بديهيات أولية يأخذ العقل في تركيبها واستنباط بعضها من بعض؛ وبناء بعضها على بعض؛ فيصل إلى حكم عقلي قاطع، ويدل ذلك على أن التعقل يصل إلى غايته وهي الوصول إلى الأحكام القطعية بشروط منها: صحة البديهيات الأولية؛ وهي قد تختلف من فرد إلى فرد في الجماعة الثقافية، وهي قد تختلف من جماعة ثقافية إلى أخرى، ومن هذه الشروط أيضاً صحة التركيب وصحة الاستنباط لتكون النتائج يقينية؛ أى أنه يجب أن تكون كل المقدمات صحيحة ويقينية حتى تكون النتائج يقينية. والتعقل هو فحص هذه المقدمات انتهاء إلى الوصول إلى اليقين. وقبل أن نتحدث عن كيفية تحرير العقل ليصل إلى اليقين ليمارس دوره المطلوب منه؛ وسوف نتحدث أولاً عن موانع تحرير العقل أو مم يتحرر العقل؟

※ موانع تحرير العقل: (مما يتحرر العقل؟)

العلاقة بين العقل والثقافة هي علاقة مزدوجة، ومتفاعلة؛ بمعنى أن الواحد يؤثر في

الأخر ويتأثر به. فالعقل يعمل من داخل الثقافة؛ فالثقافة اللاعقلانية تؤدي بالعقل الجمعي أو أغلب عقول الأفراد إلى أن تكون عقولا (لا عقلانية) بمعنى أنها لا تقوم «بالتعقل» كما يفترض أن تقوم به؛ وقد أوضحنا من قبل بعض مظاهر انتشار ظاهرة السحر التي حاربها الإسلام بشدة، وهي ليست إلا جزءاً من اللاعقلانية الثقافية المعيقة للنهوض الإسلامى. قال تعالى:

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] ووصفه الله بأنه كيد حيث قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَلَ﴾ [طه: ٦٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

إذن فالسحر في القرآن الكريم هو تلاعب بالحواس وبالكلام؛ وهو كيد لا يفلح صاحبه؛ وماذا يفعل السحرة اليوم غير التلاعب بالحواس والكلام؟ وهو بذلك يعطل دور العقل في البحث عن الأسباب؛ فمنطق السحر هو منطق رد الأسباب إلى قوى خفية (الجن والعفاريت). والقرآن الكريم يريد أن يستعمل العقل للبحث عن أسباب الظواهر، والسنن الكونية وتفسيرها ليس بالتفسير الأسطوري كما يفعل السحرة. وكما حرم القرآن السحر تحريمًا قاطعًا؛ أيضًا؛ قال **الْعَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ**: «لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا مؤمن بسحر ولا قاطع رحم». هذا المجتمع الذى يدعو الإسلام إلى بنائه مجتمع المحبة وصلة الرحم ومجتمع العقلانية؛ فحتى معاقرة الخمر التى تفسد العقل محرمة كالسحر الذى يفسد العقل سواء بسواء؛ وعن ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: سمعت رسول الله **ﷺ** يقول: «إن الرقى والتائم والتولة شرك؛ قالوا يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتائم قد عرفناها فما التولة؟ قال شئ تضعه النساء يتحبين به إلى أزواجهن وهو لون من ألوان السحر». وحارب الإسلام أشكال اللامعقول الأخرى فقال **الْعَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ**: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر». وقال أيضًا «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد برئ مما نزل على محمد» وليس من ذلك دلالة على محاربة اللامعقول كله. إن موروثنا الثقافى فى جانبىه الشفهى أو المدون تكاد تغلب عليه المعتقدات والأساطير القادرة على الاستمرار والتوالد بإعادة إنتاج المثل؛ وهذا الموروث قادر على استعمال الوسائل المعاصرة للإعلام من صحافة وتلفزيون وكتب وإنترنت. فهى جميعاً تفتح أبوابها للامعقول وتغذية بقصد أو بغير بقصد؛ ومن الأمثلة التى نشاهدها يومياً فى الإعلانات والصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون عن قدرات وخوارق وأخبار قارئى الكف والحظ وحلألى العقد المرضية، وغيرها من العقد الحياتية؛ إلا دليلاً على هذه المعتقدات والأساطير؛ يعنى ذلك ببساطة أن المعقول الإسلامى محاصر وأنه لا يمكن التحرر من الحصار إلا بالعقل.

لقد دعانا الله سبحانه وتعالى إلى فك الحصار عن العقل فقال أصدق القائلين واصفًا حالة العرب وحالة الكفار الذين وقفوا في وجه الدعوة وواصفًا حالة العرب وغير العرب في كل الأزمنة وداعيًا إلى التحرر من هذه الحالة: ﴿أُولَٰئِكَ أَصَابُوا مَأْسَمًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] وقال سبحانه: ﴿تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، فالآية الأولى تدعونا - كما دعت من قبلنا - إلى التحرر من اللامعقول حتى لو كان أبأؤنا عليه، وتصفنا الآية الأخرى - كما وصفت من قبلنا - فالعرب والمسلمون يبلغون تعدادًا ريع سكان الكرة الأرضية ولكن قلوبهم شتى؛ ولذا لم يوصف الواحد منهم بأنه لا يعقل، بل وصفوا بأنهم قوم لا يعقلون.

وإذا ما عرضنا واقعنا العربي - الإسلامي على هاتين الآيتين، سنجد أنفسنا في حال أولئك القوم، فنحن قوم قلوبنا شتى لأننا لا نعقل وبصورة أخرى فإن «المعقول الإسلامي» قد تحول في كثير من أساسياته إلى «اللامعقول الثقافي»، ولن نتحرر منه إلا «بالعقل» من أجل إعادة بناء الثقافة الإسلامية العقلانية.

وفيما لو قارنا بين الثقافة الإسلامية العقلانية حينها «كان العقل المسلم بخير وعافية عندما انطلق بكل ما آتاه الله سبحانه وتعالى من قدرة يبارس الأسباب، ويسخر السنين ويحدد المقاصد السليمة لأفعاله ويهتدي بمقاصد الشارع الحكيم في عمليات تنزيل الفقه على الواقع»، وذلك في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي، وبين الواقع الحالي لعرفنا أن العقل الإسلامي يكاد يكون مشلولاً، فقد أنتج الفكر الإسلامي ما أنتجه في مجالات العلم الطبيعي والإنساني على مستوياتها وأقسامها وأبدع في ذلك «بما كان يتصف به هذا الفكر من التفوق العقلائي واتساع العقل ومدى حرية البحث والإبداع في الإشكاليات المتصلة بالقضايا الدينية ودرجة التسامح والإقبال والمناظرة واحترام شروط المناظرة بين الأئمة والمجتهدين، ورفض الخلط بين العرض العلمي للقضايا ومواقف العوام، والتقييد بما يفرض البرهان الساطع والحجج الدامغة على العقل ومتابعة البحث والاحتجاج على المستوى العلمي المحض دون الانحطاط إلى مستوى الشتم والافتراء وتحميل المناظر ما لم يفكر فيه ولم يدعه ولم ينطق به قط».

جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؛ قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم؛ قال ذلك صريح الإيمان؛ ذلك محض الإيمان». ذلك هو العقل الذى دعا إليه الإسلام؛ الشك المنهجى الذى يوصل إلى الحقيقة وإلى اليقين. لقد نهج العلماء المسلمون هذا النهج فى اجتهادهم وفى علومهم وفى بنائهم لهذا الجانب العقلانى من الثقافة

العربية؛ لكن لم تعمر العقلانية الإسلامية طويلاً أمام هجمات الغنوصية والنزعة الباطنية التي لا تعتمد على العقل ولا على الخواص؛ بل تسلك سبيل العرفان والرياضة الروحية، وهي توليفة هيلينية إغريقية؛ أضيف إليها الكثير من مذاهب الفرس ودياناتهم كالمزدكية والمناوية؛ والديانة الشعبية الإسرائيلية القائمة على الإغراق في الرموز والحقائق وأسرار الأعداد والحروف؛ وتم البحث عن العديد من العوامل في القرآن الكريم والسنة النبوية، كما يساعدها على تأويل الحقائق؛ وتفسيرها لتتناسب مع الفكرة المسبقة؛ وهو مازال صفة من صفات ثقافتنا التدينية إنا مازلنا نخضع لهيمنة هذا الجزء من الثقافة؛ ونعيد إنتاجه بدلاً من إعادة إنتاج العقلانية الإسلامية. وفي المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي؛ نعيش حالة تغرب حقيقية تدخل في إطار اللامعقول أيضاً؛ فننون الغرب واهتماماته وأعياده وأزيائه وطرق احتفالاته بالجهد أو الرياضة أو رأس السنة هو إنتاج الثقافة الغربية؛ وحين تدخل هذه الوسائل حياتنا الثقافية فإنها تدخل كأشكال من اللامعقول؛ وبخاصة أن إعلامنا العربي يسوقها على أنها معقول العالم المتحضر؛ ويهمل قضايا الشهداء والمعتقلين والعلماء والمفكرين والأدباء والفقهاء ويهمل قضايا الاحتلال وقتل المسلمين؛ ولا يهتم بذلك في دوره ووظيفته في تعطيل العقل المسلم عن دور الأسطورة والخرافة في تعطيل هذا العقل.

* العقل ووظيفته

أقل عن الكاتب الكبير الدكتور محمود حمدي زفروق نقاشه عن دور العقل في نظر الإسلام من كتابه المهم «تمهيد للفلسفة»: «إن الإنسان لم يبلغ كل هذا التكريم الذي سما به فوق كل الكائنات إلا بالعقل الذي أحصه الله به وميزه على سائر المخلوقات؛ وقد نوه الإسلام بالعقل التحويل عليه في أمور العقيدة والمسئولية والتكليف؛ ولاتأتى الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم (كما سبق أن أوضحت) إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، وذلك ما يؤخذ من كل الآيات القرآنية التي وردت الإشارة فيها إلى العقل. ولم يكن من قبل المصادفة أن تكون الإشارة إلى العقل في القرآن في صيغ عديدة؛ مختارة بلفظ القلب أو الفؤاد؛ وتارة ثانية في صيغة أفعال بلفظ المفرد أو بلفظ الجمع كما سبق أن ذكرت؛ والتي أراد الله للعقل الإنساني أن يارسها في هذا الوجود، والإسلام عندما يخاطب العقل فإنه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه.. فهو يخاطب العقل الذي يقسم الضمير ويدرك الحقائق ويميز الأمور ويوازن بين الأضرار، ويتأمل ويعتبر ويتعظ ويتدبر ويحسن التدبر والرؤية. وقد وعى رجال الفكر الإسلامي القيمة الكبرى التي يسبغها الإسلام على العقل، فقال عنه حجة الإسلام الغزالي

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) إن العقل «نموذج من نور الله»، وقال عنه الجاحظ: (توفي عام ٢٥٥ هـ): إنه وكيل الله عند الإنسان. وإذا كانت وظيفة العقل على هذا النحو فإن محاولة تعطيله عن أداء هذه الوظيفة يعد تعطيلًا للحكمة التي أرادها الله من خلق العقل؛ مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس التي أنعم بها عليه عن أداء وظيفتها التي خلقت من أجلها. وهؤلاء الذين يفعلون ذلك يفهم القرآن بأنهم أخط درجة من الحيوان حيث يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا وذنبا من الذنوب. يقول القرآن الكريم في وصف الكفار يوم القيامة ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الملك: ١٠ - ١١].

ولهذا كانت دعوة القرآن للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل، وهكذا يجعل الإسلام التفكير واجبا مقررًا وفريضة إسلامية، ومن هنا قرر ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وذلك آخذًا من آيات القرآن العديدة في هذا الشأن، وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجبا دينيا في الإسلام فإنها من ناحية أخرى مسئولية صحيحة لا يستطيع الإنسان الفكك منها؛ وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقي وسائل الإدراك الحسية. وفي ذلك يقول القرآن: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

* تمهيد الطريق أمام العقل

ومن منطلق حرص الإسلام على ممارسة العقل لوظائفه التي أرادها الله، كان حرص الإسلام شديداً على إزالة كافة العوائق التي تعوق العقل عن ممارسة نشاطه؛ ولهذا طالب الإسلام بتحطيم هذه العوائق ليشق العقل طريقه للفهم الصحيح والتفكير السليم، ويتجلى لنا ذلك واضحا من النقاط التالية:

(أ) رفض التبعية الفكرية والتقليد الأعمى. فالإسلام عندما أمرنا بالنظر واستعمال العقل فيها بين أيدينا من ظواهر الكون نهانا في الوقت نفسه عن التقليد الذي فيه تعطيل للعقل عن أداء دوره في الوجود، فالتقليد ضلال يعذرفيه الحيوان؛ ولا يصح بحال من الأحوال من الإنسان القادر على التفكير والتمييز؛ ولهذا عاب القرآن على المشركين تقليدهم الأعمى لأعرافهم وتقليدهم وأسلافهم مستنكرا مثل هذا التقليد. وفي ذلك يحكى عنهم قولهم: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤]. ويتساءل في استنكار: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا

وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿﴾ [المائدة: ١٠٤]. وقد حذر النبي (ﷺ) أيضاً من التقليد الأعمى قائلاً: (لا تكونوا إمعة) (رواه الترمذى)؛ بمعنى لا تكونوا مقلدين للآخرين تقليداً أعمى.

(ب) القضاء على الدجل والشعوذة والاعتقاد في الخرافات والأوهام وإبطال الكهانة، كما سبق أن ذكرت سابقاً؛ فلا كهانة في الإسلام وليس هناك مخلوق يتحكم باسم الدين في رقاب العباد؛ فلا ضرر ولا نفع إلا بإرادة الله الذي يقول لنا في القرآن الكريم إنه أقرب إلينا من جبل الوريد؛ وأنه قريب مجيب دعوة من يدعوه. والرسول (ﷺ) يقول: (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) (رواه الترمذى والإمام أحمد). وعقائد الإسلام واضحة ليس فيها ما يتعارض مع مقررات العقل السليم. وقد وقف الرسول (ﷺ) بحزم في وجه الخرافات والأوهام. وعندما مات ابنه إبراهيم تصادف أن حدث كسوف الشمس في ذلك اليوم فقال البعض: إن كسوف الشمس هو مشاركة في الحزن على موت إبراهيم. وقد واجه النبي (ﷺ) ذلك بحسم قاطع قائلاً: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد» (رواه البخارى ومسلم).

(ج) تركيز الإسلام على المسؤولية الفردية؛ فكل فرد مسئول عن أعماله مسئولية تامة؛ وليس هناك خطيئة موروثية؛ وآيات القرآن الكريم في هذا الشأن واضحة صريحة. وهذه المسؤولية الفردية لا تقوم إلا على أساس حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه في الأمن على نفسه وعقله وماله. وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية الأساسية التي قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا، وهذه المقاصد الضرورية هي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

(د) حرر الإسلام الفرد المؤمن بعقيدة التوحيد من الخوف المهيمن من السلطة الدنيوية ورفعته إلى العزة التي يقول القرآن الكريم فيها: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ويقول الرسول (ﷺ): (اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس). (رواه تمام وابن عساکر) كما قرر الإسلام ألا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ وأن المؤمن لا يخشى في الحق لومة لائم. وهكذا كفّل الإسلام للإنسان المناخ الحقيقي الذي يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعى ويفهم؛ وبهذا أطلق الإسلام سلطان العقل في كل ما كان يقيد؛ وخلصه من كل تقليد كان يستعبده؛ وبهذا تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما، وهما استقلال الإرادة، واستقلال الرأى والفكر، وقد كان لهذا الموقف الأساسى للإسلام من العقل أثره العظيم في صياغة الحضارة الإسلامية والعقلية الإسلامية.

* تحرير العقل من ثقافة النقل

النقل هو الأخذ عن السابقين؛ والتعويل على نصوصهم؛ والاستناد بوجه عام إلى النصوص القديمة؛ السابقة في الوجود والرتبة؛ والنظر إلى هذه النصوص مقدسة أو بشرية؛ بوصفها مبتدى العلم ومنتهاه؛ مصدر المعرفة وإطارها؛ منبع الحقيقة وأفقها. وقد أكد الكاتب الكبير الدكتور جابر عصفور في كتابه القيم: «نقد ثقافة التخلف» أنه يلزم عن ذلك؛ وضع هذه النصوص القديمة؛ السابقة في الوجود والرتبة؛ موضع التسليم المطلق والتصديق الدائم؛ والأخذ عنها مع اعتقاد الحقيقة في ظاهرها من غير مساءلة أو مناقشة أو مجادلة؛ فالنقل هو الوجه الآخر من «التقليد» الذي هو احتذاء لما سبق وإتثار به؛ ومحاكاة له؛ وإقرار عافيه من غير نظر أو تأويل في دليل. ويؤدى التأويل الاعتقادي دوره في مستويات هذا اللزوم؛ بما ينتقل بعدوى القداسة من النصوص الدينية إلى النصوص البشرية؛ خصوصاً تلك القريبة في زمنها من زمن النصوص النبوية؛ أو المعاصرة لها؛ أقصد إلى نصوص السلف الصالح من الصحابة والتابعين؛ أولئك الذين تتحول نصوصهم إلى منارات هدى للتخلف؛ أو يرى فيها الخلف إطاراً مرجعياً مطلقاً ينقاس عليه كل فعل أو حدث من أفعال البشر أو أحداث حياتهم المتغيرة.

ويقول أيضاً الدكتور عصفور: إن عدوى القداسة هذه لا تتوقف عند هذا الحد فحسب؛ بل تمضى إلى مالا نهاية في ممارسة دورها؛ فتنقل إجلال السلف الصالح من الصحابة والتابعين إلى كل سلف بالقياس إلى كل خلف؛ وذلك على نحو يغدو معه اللاحق على الإطلاق في موقف الناقل عن السابق بالإطلاق نفسه؛ تأكيداً للمعنى الاتباع وإكمالاً للدلالة الإجلال الناجمة عن تحويل الدين إلي ما ليس بديني ويترتب علي ذلك أن يغدو النقل عن النص هو الأصل الموثوق به في الإدراك والفهم، العقل والسلوك، القبول أو الرفض، وذلك علي نحو يجعل من «النص» المعيار المطلق في الحكم بإيجاب القيمة، ومن ثم المعيار الذي يحدد ما يدخل في دوائر الحق والخير والجمال، وما يلزمها من صفات النافع والمسموح به أو المندوب إليه، مقابل الباطل والضار والمكروه والمنهي عنه.

وينتج عن هذه النصية كما يقول الكاتب ظاهرة إغلاق باب الاجتهاد (العقل)، أو ما أسميه أنا بتعطيل العقل، خصوصاً بعد أن يرسخ الاعتقاد بأن أحاديث السلف وآثارهم وكتاباتهم تكفي لمواجهة أي مشكل طارئ، أيًا كان نوع هذا المشكل، أو أيًا كان مجاله، ومن ثم التسليم بأنه لا قيمة لأي جديد أو متغير إلا إذا عثر الخلف في المنقول عن ميراث السلف على نص من النصوص التي تبرر هذا الجديد، أو على خبر من الأخبار التي تقصد التغيير.

ولو لم يجد الخلف في المنقول من نصوص السلف ما يبرر الجديد الطارئ، أو يعضد المتغير الحادث، انتهى الجديد والمتغير إلى هوة النبذ، وظلا بمثابة «بدعة الضلالة» التي تقضي إلى النار لإقترانها بالمعصية. وبديهي أن تغدو المعصية كالبدعة في لوازم هذا السياق، سواء من حيث اقترانها بما يفسد الحياة الدنيا، أو ما يستحق العقاب في الحياة الآخرة، وذلك بوصفها فعلاً محدثاً (أو حدثاً شاذاً) لا يستند إلى نقل، ولا ينقاس على نص من النصوص المنقولة عن السلف الصالح.

وكما أنه لا اجتهاد مع النص، في ميراث التقليد، فإنه لا اجتهاد مع نقل، ولا إعمال للعقل إلا في حدود المنقول الذي يحدد أفق كل شيء ومداره المغلق بمدي نصيته.

هكذا، اقترن مفهوم: «النقل» في الثقافة الاتباعية بالتقليد، وتلازم معه تلازم السبب والنتيجة وذلك بالمعنى الذي أدى بالطرفين إلى حال من الاتحاد، كما لو كان النقل تقليدًا بالأخذ عن نص بعينه، وكما لو كان التقليد نقلًا عن نص سابق، وأخذ به، ومحاكاة له.

وترتب على ذلك تجاوب دلالات: «النقل» في الدلالة على «التقليد» أو «الاتباع»، خصوصًا في المجال الدلالي الذي يعطي الأولوية للنص في المعرفة الإنسانية، ويؤخر العقل بوصفة صاحب الدور اللاحق على النص، وفي الوقت نفسه، يجعل التقليد مقدمًا على الاجتهاد في المجال ذاته، خصوصًا في تلازم التقليد مع النقل من حيث تناقص المفاهيم المصاحبة لهما مع مفاهيم «النظر» أو تأمل الدليل «أو «المساءلة» أو «القياس».

ولذلك اختزلت طوائف من الدارسين القدامي والمحدثين مسميات «أهل السنة والجماعة» و«أصحاب الحديث» ودعاة «السلفية» أو «الاتباع» أو «التقليد» في مسمى واحد هو «أهل النقل» وذلك مقابل «أهل العقل» من طوائف المتكلمين والفلاسفة الذين جعلوا للعقل الأولوية المطلقة، سواء في مجالات المعرفة الإنسانية، أو قضايا العقيدة الدينية، أو مبادئ السلوك الأخلاقي، أو حتى الإبداع الأدبي والفني.

وإذا كان الفارق بين الفلاسفة والمتكلمين، من حيث تعارضهم مع أهل النقل، يرجع إلى أن نظر الفيلسوف هو نظر في الوجود من حيث إنه يدل على الوجود فيما يقول ابن خلدون في «مقدمته» فإن هذا الفارق يضيق إلى حد كبير في الدائرة العقلانية التي لا تفارق الاعتماد منه في البراهين على الاستدلال والتأويل، والانطلاق بالعقل إلى مداه اللامحدود الذي يجعل منه الإيذان الديني نفسه قضية عقل قبل أن تكون قضية نص؛ ولذلك ذهب أبو الهذيل العلاف المعتزلي

إلى أن الإنسان مكلف بالأشياء التي يستطيع العقل التمييز فيها بين الخير والشر ولم تصل إليه أوامر الشرع، أو يطالع نصوصه، وإن قصر في التمييز بين الخير والشر استوجب العقوبة لأنه لم يعمل عقلة، ولم يدرك ذاتيًا بهذا العقل وجوه الصدق والعدل، وأن عليه الإعراض عن الكذب والظلم ولو لم يصله نص، أو يعتمد على نقل، لأن العقل يستطيع أن يدرك حسن الأشياء وقبحها لما فيها من صفات ذاتية تجعلها حسنة وقبيحة.

ومن المنطلق نفسه، ذهب ابن جرير الطبري صاحب التفسير الشهير (كي يؤكد ابن حزم في «الفصل») إلى أن «من بلغ الاحتلام أو الإشعار من الرجال، أو بلغ المحيض من النساء، ولم يعرف الله عزوجل بجميع أسائه وصفاته من طريق الاستدلال فهو كافر، وكان ذلك في منحنى غير بعيد عن المنحنى الرمزي لقصة «حي بن يقظان» التي كتبها الفيلسوف العربي الكبير ابن طفيل ليؤكد ما سبقه إليه غيره من العقلانيين الذين رأوا أن العقل جوهر قائم بنفسه، قادر بذاته على الوصول إلى الحقيقة المطلقة للكون، من غير حاجة إلى نقل أو نص؛ ولذلك كان العقل حجة الله على خلقه، وأداة خلقه في إدراكه سبحانه وتعالى، حتّى من قبل الرسالات والنبوات التي رآها العقلانيون لطفًا بالمخلوقين المكلفين، دين أو معرفة أو سلوكًا بحكم ما انطوى عليه من عقل.

وكان «أهل السنة والجماعة» يرفضون هذا المذهب في العقل، ويرونه بعيدًا عن الدين، ويذكرون قدرة العقل الذاتية على الوصول إلى الحقيقة، دنيا أو معرفة أو سلوكًا، بعيدًا عن النص أو خارج دائرة النقل، في العقيدة الدينية، لا تتحدد إلا نصًا، والمعرفة لا يتوصل إليها إلا اتباعًا، والسلوك الأخلاقي لا يتأسس إلا تقليدًا، والنقل طريق النجاة في كل المجالات، وأصل الهداية التي يضيعها الغلو في تقدير قيمة العقل، ويعني ذلك أن العقل ليس أصلًا في إثبات الشرع كما يذهب العقلانيون، وإنما هو أصل من أصول علمنا، بالشرع، والعقل تابع للشرع من حيث هو الأصل؛ ولذلك فإن مرتبته ثانوية بالقياس إلى النص الذي يبلغ تعاليم الشرع، ولا معنى لهذه المرتبة بعيدًا عن النقل، فلا قيمة للعقل نفسه إلا من حيث صلته بتأكيد مقاصد النص، وما ذلك إلا لأن عمل العقل كله لا حق على الوجود الثقلي للنص ومأمور بتصديقه والعمل بمقتضاه.

وكان الصراع بين «العقل» و«النقل»، في مستويات التقابل بين القطبين المتضادين، صراعًا بلغ أقصاه في الصدام بين المعتزلة والحنابلة على وجه الخصوص، ابتداء من عصر الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) وانتهاء ببداية خلافة المتوكل (٢٣٢هـ) الذي نصر أصحاب

الحديث الذين مثلهم الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ) وأتباعه على المعتزلة، ونهى الناس عن الكلام والجدل، ومع ذلك، ظل الصراع بين الاتجاهات العقلانية والاتجاهات النقلية باقياً على امتداد قرون الحضارة الإسلامية، ينتصر أهل العقل في فترات الاستقلال والازدهار؛ وينتصر أهل النقل في فترات الهزائم والانكسارات؛ فيأخذون بثأرهم من العقلانيين الذين شنعوا عليهم ويشيعون شعار «من تمنطق فقد تزندق» لقمع العقل وأهله؛ ولا يتردد بعضهم في حرق كتب العقلانيين المتهمة وأصحابها بالفكر. وقد كان انتصار أهل النقل النهائي انتصاراً لثقافة الاتباع التي لاتزال غالبية على الثقافة العربية إلى اليوم؛ وذلك على الرغم من إعادة فتح أبواب الاجتهاد؛ وحيوية بعض التيارات العقلانية التي لاتزال في إطار الهامش المقموع في الثقافة العربية المعاصرة، والأمثلة على ذلك كثيرة، وبعد هذه الرحلة الممتعة مع العقل والنقل في رحاب الفكر والعقل العربي والإسلامي؛ نحط رحالتنا في بعض السطور كخاتمة لهذا الفصل المهم لتلخص معاني تحرير العقل العربي الفكرية؛ ووضع بعض النقاط المهمة اللازمة لأي مشروع تنويري لتحرير هذا العقل من معوقاته للانطلاق نحو الاجتهاد والرقى والحضارة. إن العقل كما ورد في لسان العرب هو الحجر والنهى؛ ضد الحمق؛ والعاقل هو الجامع لأمره ورأيه؛ مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه كما يقول الكاتب محمد المعمار في إحدى مقالاته المهمة؛ والعاقل من يحبس نفسه ويردها عن هواها؛ واعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام؛ وسمى العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك؛ وقد يتمكن من تعريف العقل اصطلاحاً؛ بأنه الملكة التي يحكم المرء بواسطتها على الأمور على صعيدي الموضوع والذات؛ عن طريق إدراك العلاقات والروابط بين الأشياء وتفهم الأسباب والنتائج؛ وبعبارة مختصرة هو الأداة الفكرية التي يستخدمها المرء للحكم على الأمور أو التمييز بينها؛ وتتكون هذه (الأداة الفكرية) منذ أن يولد الإنسان تدريجياً؛ وتظل تنمو معه أو تتضاءل حتى الممات؛ وتشكل من تفاعل عنصرين أساسيين هما: البيئة والوراثة.

أو التكوين الجيني والمحصول التربوي، ويدخل في الأخير كل ما يتلقاه الإنسان من مؤثرات خارجية، بما فيها تربيته البيئية والمدرسية والشارع، وعلاقاته الاجتماعية، والمؤثرات المجتمعية، أن التفاعل المركب والمعقد بين هذين العنصرين المنفردين يتمخض عن (عقل الإنسان) أو عن (الإنسان ذاته) في تفكيره وسلوكه...

لذلك يمكن أن يقال إن الإنسان (يفكر بعقله) أي يتخذ قراراته التي تتجسم في تصرفاته، من خلال تفكيره بهذه (الأداة) بيد أن هناك نمطاً آخر من التفكير (لا بالعقل) كما هو معروف،

بل (في العقل)، أي بدل أن يفكر الإنسان في الأشياء أو الأعيان، أو بالأحرى (الموضوع)، بتلك الأداة (العقل) فإنه يتفكر في تلك الأداة (العقل)، التي تصبح في هذه الحالة هي (الموضوع)، أو يتفكر بالذات كموضوع بدل أن يتفكر في الموضوع خارج الذات، فالنمط الأول من التفكير أي التفكير بالعقل في الموضوع هو تفكير (بالعقل المنفعل) على الأغلب الثاني، أي التفكير بالعقل في العقل، فهو تفكير (بالعقل الفاعل) بدرجات ومستويات مختلفة كما يوضح ذلك الدكتور محمد عابد الجابري في موسوعته «نقد العقل العربي» ويختلط أحيانا الفكر بالعقل إلى الحد الذي اعتبره الدكتور الجابري مرادفًا له عندما يستخدم (كأداة)، فهو يشير إلى أنه كان بإمكانه استخدام لفظ (فكر) بدل (عقل) في موسوعته الشهيرة التي سبق أن ذكرتها، لولا هذه الكلمة «تعني الاستعمال الشائع اليوم مضمون هذا الفكر ومحتواه، أي جملة الآراء والأفكار التي يعبر بها أو من خلالها أي شعب، عن اهتمامه ومشاغله، وأيضًا عن مثله الأخلاقية ومعتقداته المذهبية وطموحاته السياسية والاجتماعية؛ وهكذا فإن الفكر يعنى كل ما أنتجه أى شعب من أدب وعلم وفلسفة؛ أى من ثقافة؛ لذلك يقال (الفكر العربي) أى حصيلة ذلك الفكر؛ ولكن مع ذلك فإن هناك جانبًا آخر من الفكر هو الجانب الذى يستخدم (كأداة) لا كمحتوى أو ناتج؛ ويمكن أن يختلط بالعقل؛ لذلك يقول د. الجابري «إن ما يجب أن نهتم فى منهج التجديد الفكرى العربى ليس الأفكار ذاتها؛ بل (الأداة) المنتجة لهذه الأفكار أى العقل. «إن العقل كما قلنا يتكون من تفاعل عنصرين أساسيين؛ هما الوراثة والبيئة؛ فنحلل عنصر البيئة الذى يتكون من جميع ما يتلقاه الكائن البشرى من انطباعات ومؤثرات خارجية؛ ابتداء من لحظة ميلاده حتى مماته؛ وتدخل فيها التربية البيئية والمدرسية والشارع وعلاقاته الاجتماعية.

ولاشك بأن بيئة الإنسان العربى تختلف عن بيئة الإنسان الصينى أو الأوروبى؛ كما تختلف عن أى بيئة عن بقية البيئات؛ وبالتالي فإن عقول هذه المجموعات المختلفة من البشر ينبغي أن تكون مختلفة بعض الاختلاف؛ وهذا لا يعنى أننا نقضى بذلك على المبدأ القائل بتجانس العقل البشرى؛ أى أنه لا يختلف من حيث إنه عقل بشرى؛ ويتميز عن عقل الحيوان؛ بل نعرف بهذا التجانس العام؛ ولكن ما إن ندخل فى الخاص؛ حتى تبدو الفروقات؛ بل تتجلى تلك الفروقات بين طباع البشر أو عقولهم باختلاف البيئات والمجتمعات الكبيرة والصغيرة. يقول الجابري «بها أن الحياة الاجتماعية ليست واحدة ولا على نمط واحد؛ فمن المنتظر أن تتعدد أنواع القواعد العقلية؛ وأنواع المنطق؛ بتعدد وتباين أنماط الحياة الاجتماعية؛ من هنا كان للشعوب المسماة بدائية منطقتها أو عقلها؛ وكان للشعوب الزراعية منطقتها؛ وكان للشعوب التجارية

الصناعية منطقتها؛ ومن هنا أيضًا ولنفس السبب، كان لكل مرحلة تاريخية منطقتها؛ وهكذا يمكن القول بأن هناك عقلًا عربيًا متميزًا؛ لأن المجتمع العربي مر بأدوار تختلف عن أي مجتمع آخر؛ تراكمت خلالها الأحداث والوقائع والقيم؛ فأصبحت جزءًا من الثقافة التي تشكل العقل العربي؛ وبهذا يقول الكاتب «جورج طرابيش» (إن العقل البشري عندنا هو ثمرة تراكم تاريخي؛ ومثله مثل (الرأسال) عند «ماركس»؛ فإنه لا يمكن فهمه في أطوار تطوره اللاحقة بدون أن تؤخذ في الاعتبار سيرورة تراكمه البدائي). إن هناك علاقة جدلية متشابكة بين عقل المجتمع وعقل الفرد؛ من حيث تأثير الأول في الثاني على نحو متواصل ومكثف إلى الحد الذي يظهر هذا التأثير في تراكم الأفكار في عقل الفرد منذ ميلاده حتى مماته نتيجة لوجوده المستمر في هذا المجتمع؛ وإلى الحد الذي يصبح فيه الفرد صورة مصغرة للعقل المجتمعي؛ كما قد يؤثر العقل الفردي في العقل المجتمعي أحيانًا؛ ولكن بدرجة أقل وفي حالات محدودة؛ علمًا بأن عقل الفرد يخضع للعقل المجتمعي لا شعوريًا؛ وهذا الأمر لا ينطبق على الفرد العربي والمجتمع العربي وحسب؛ بل يعم جميع المجتمعات؛ وهكذا فإن العقل البشري محكوم عليه بالسجن المجتمعي المؤبد؛ مع اختلاف في خصائص تلك السجون ومدى قساوتها أو رحابتها؛ ثم مدى صرامة العقوبة التي تقع على من يحاول الإخلال بقواعد السلوك في هذا السجن على سبيل المثال لا الحصر إلى اسم من أسماء بعض المفكرين العرب الذين انتهكوا قواعد السلوك داخل السجن العربي الرحب مثل الدكتور طه حسين مؤلف كتاب (في الشعر الجاهلي)؛ الشيخ مصطفى عبد الرزاق، جمال الدين الأفغاني؛ الشيخ محمد عبده، ابن رشد، ابن سينا؛ أبو بكر الرازي؛ وحديثًا الدكتور نصر حامد أبوزيد وغيرهم الكثير...

وهكذا فإن العقل العربي، وبالتالي الإنسان العربي العادي، سجين في سجون منيعة متعددة الأصناف والأسوار، وما إن يظهر بعض من ذوي الأفكار النيرة لتحرير الناس من سجونهم المركبة حتى يتعاون على قمعه ورفضه وإلغائه كل من السلطة والمجتمع بأفراده السجناء أنفسهم الذين ألغوا سجونهم الدائم، بل إن معظمهم لا يعني سجنه، أي لا يدري أنه سجين أصلاً، لأنه ولد وعاش في هذا السجن الكبير، وسيموت فيه، فمثلاً العقل العربي سجين قهره الاجتماعي الذي يفرض عليه أن يفكر ويتصرف ويسلك طبقاً لمستلزمات ومحددات ومسلّمات العقل المجتمعي السائد، والمفارقة أن الإنسان العربي يخضع لهذه المسلّمات القاهرة دون وعي، بل تصبح جزءًا من عقله الواعي يدافع عنها باعتبارها تمثل قيمه الخاصة.

لقد أصيب الإنسان العربي بصدمة عنيفة منذ حملة نابليون على مصر في عام ١٧٩٨م، وتكرار الهزائم أمام الغرب المتقدم، ثم تفاقمت هذه الصدمة في واقعية الهزيمة الكبرى في

حرب ١٩٦٧م وازدادت تفاقماً وتأزماً بعد (عواصف الصحراء)، أصيب العقل العربي بتلك الصدمة العنيفة بسبب فشله في مواجهة الآخر، وقد يبرر الإنسان العربي هزائمه أمام الغرب لأنه يواجه دولاً كبرى، فكيف يبرر هزائمه المتكررة أمام الكيان الصهيوني أو الدويلة أو العصابات الصهيونية كما يقال عنها في نشاطاتنا الكلامية اليومية.

إن من أقوال جمال الدين الأفغاني - رحمه الله - المشهورة إن (العربي يعجب بهاضيه وأسلافه وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله)، ونحن لانزال نعيش على أمجادنا السابقة، إن ارتباطنا بالذي نطلق عليه تاريخنا المجيد أو تراثنا الذهبي، أو سلفنا الصالح، ليس له ما يضارعه أو يعادله لدى أية أمة من أمم الأرض، إن الإلحاح في التنويه بهاضيتنا المجيد وفضله على العالم عامة، وعلى الغرب خاصة، قد يعتبر ظاهرة مرضية إن لم يقترن بالعمل الجاد والإبداع الفكري والحضاري، بما فيه العلمي والتكنولوجي علي وجه الخصوص، لمواكبة الحضارة الحديثة القائمة على هذه المعطيات. إن التنويه المستمر والدائم والمخل باللسلف واحترام التراث يقتضى عمل كل شيء إعادة دراسته وتحليله بعمق؛ انطلاقاً من أسس معرفيه مما يصعب أو يتعذر لحقيقة معرفتنا بهذا (العقل العربي)؛ وليس بوسعنا أن نذكر أمة لها مثل حضارتنا العربية؛ أضر بها ماضيها إلى الحد الذي أضر بالأمة العربية؛ فحن ننشأ منذ نعومة أظفارنا على تمجيد وتعظيم ماضيها وأسلافنا؛ في أسرتنا أولاً؛ ثم في مدرستنا؛ لا ريب أن المقصود بكل ذلك تحقيق أهداف نبيلة؛ منها حفز الهمم وإيقاظ العقول لاستعادة مجد الأجداد؛ وتحقيق التقدم؛ بيد أن هذا التأكيد الذي جرى على هذا النحو وبدون أن يقترن بالتقد العلمي الموضوعي؛ قد أدى إلى عكس المطلوب تماماً؛ فقد أسفر عن إمعاننا في التلذذ بأحلام الماضي وأمجاده؛ غافلين عن واقعنا الذي يزداد تخلف؛ ويتساءل الدكتور الجابري «ماذا تفيد في الثقافة العربية منذ الجاهلية إلى اليوم...؟» ذلك أننا نشعر جميعاً [يعدد الجابري أسماء كثيرة من الأجداد من عنتر بن شداد إلى ابن خلدون] نشعر بهؤلاء جميعاً معنا هنا؛ أو يقفون هناك أمامنا على خشبة مسرح واحد؛ مسرح الثقافة العربية الذي لم يسدل الستار فيه بعد ولو مرة واحدة». ليس من مصلحتنا أن نسدل الستار على هذا المسرح العظيم لذلك التاريخ الحافل بكل مافيه من صفحات بيضاء وسوداء؛ وبكل مافيه من مجد ومكسب وانتصارات؛ بل يجب أن نعيد كتابة هذه المسرحية؛ ونعيد إخراجها بعقول ناضجة؛ بعقول العصر الذي نعيشه؛ بعقول نقدية صارمة في موضوعيتها وعلميتها؛ وألا نظل نكرر عرض هذه المسرحية، كما كتبت وأخرجت في عصرها قبل أكثر من ألف عام.